الرأي الصريح

في مقالة «الفصيح العامي والعامي الفصيح»

قرأت في الجزء العاشر من مجلة المقتبس مقالاً عنوانه «الفصيح العامي والعامي الفصيح» لحضرة الفاضل نعوم افندي مكرزل صاحب جريدة الهدى التي تصدر في نيويورك. قرأته بلهف شديد لأني اميل بسائق من طبعي الى المباحث اللغوية ونقد كلام البلغاء وتمييز القول الفصيح من الغث الركيك. ليكون لي من ذلك مادة استعين بها. وقاعدة احتذي مثالها: اقدمت على تصفح هذه المقالة وانا معجب باولئك النفر من اخواننا العرب السوريين الذين هجروا وطنهم لكنهم لم يهجروا لغتهم. ولم يذلوها في غربتها. بل رفعوا شأنها وحفظوا من كرامتها بما ينشرونه من الجرائد. ويدعونه من الرسائل والكتابات المفيدة. وحضرة نعوم افندي من هؤلاء الافاضل الذين خدموا لغتنا العربية بما ينشره في جريدته (الهدى) التي لم احرم من قراءتها وانما كنت اقرأ احياناً نبذة منها في صحفنا العربية اما مقالة (الفصيح العامي) الذي قرأته اخيراً في مجلة المقتبس فقد رأيته اقل قدراً من ان يعزى الى صاحب جريدة (الهدى). ولاحظت فيه ركاكة في التعبير. وضعفاً في الاسلوب. ومواضع النقد والمؤاخذة بلغت من الكثرة مبلغاً جعلتني استبعد ان تكون برزت من قلم كاتب المقالة وانما هو المعقول على أن مصحح اصولها في ادارة المقتبس جاءت هكذا مشوهة المحاسن طامسة المعالم. وان لم يكن الامر كما ذكرت فيكون الوسط الاعجمي الذي يعيش فيه اخواننا المهاجرون اثرت رطانته في صراحة لغتهم. وذلك محته من عروبة السنتهم. والا فكيف نقرأ مقالاً لواحد من اشهر كتابهم في نقد لغة الكتاب وتعداد اغلاطهم في اساليبهم وتراكيب كلامهم. وارشادهم الى الطريقة المثلى في التعبير والتحبير. ثم بعد هذا كله نسمع في المقال نفسه من الركاكة والغموض و[illegible] ما لا يتفق وجوده في عشرات من المقالات. الا يكون هذا من الغرائب؟

لو اقتصر الكاتب على الموضوع الاهم من مقالته: وهو سرد الكلمات العامية التي يحسبها الكتاب دخيلة وهي عربية فصيحة ثم [illegible] اسم لها لكان افاد واجاد. لكنه ذهب

في الفنين القول كل مذهب وتعرض لنصح المنشئين والزراية عليهم وارشادهم الى الانشاء العالي فسقط في هذا الغرض من عل واتى بأشد ما نهاهم عنه وحذرهم منه ولامهم عليه .

ولا يكون من الانصاف بعد هذا ان لا نذكر نموذجاً مما نؤاخذ الكاتب فيه ونلفت نظر القارئ اليه :

اول ما يؤخذ عليه قوله في العنوان (الفصيح العامي والعامي الفصيح) فانه تكرار لا حسن فيه ولا داعي اليه : ان كلمتي (العامي) و (الفصيح) في هذا التركيب وقعتا صفة لمحذوف كأنه يقول (اللفظ الفصيح في اصله العامي في استعماله) واذا عكس وضع الكلمتين كان المعنى (اللفظ العامي في استعماله الفصيح في اصله) وهو نفس المعنى المستفاد من التركيب الاول فكان ذكره زيادة مستغنى عنها . وليس تقليب الكلمتين هنا كما هو في قولهم (كلام الملوك ملوك الكلام) فان هذا القول له معنى خاص لا يستفاد الا بمجموع التركيبين وقد حمل احدهما على الآخر . اي ان لكلام الملوك ميزة على سائر كلام الناس كما ان للملوك ميزة على الناس انفسهم . فالمعنى المستفاد من الموضوع والمحمول حسن في ذاته . وزاده حسناً قلب التركيب وعكس الالفاظ حتى استحق بذلك ان يعد في جملة انواع البديع .

ثم بعد هذا العنوان اراد الكاتب ان يبين مبلغ حاجتنا الى معجم لغوي يجري في تحليل الالفاظ مجرى معاجم اللغات الاوربية فافتتح الكلام بقوله : (ليس في اللغة العربية معجم واحد يستحق ان يدعى عجمة الرائد بوفرة الشواهد وكثرة الفوائد وضبط الشوارد ولا في غير الضخمة ما يدل على ازالة الابهام الخ) فقوله (ولا في غير الضخمة) غامض في اتصاله بما قبله مبهم في تعيين المراد منه .

ثم قال (فترى اكثر الكتاب يتخرصون فيما لا يدرون شيئه ويتوهمون ان البيان في الدخيل والحوشي والبلاغة في القديم والوحشي وان كل من هرف عرف)

الكاتب الذي خط قلمه هذه العبارة هو الذي قال بعد سطرين (لقد تهتأ ثوب اللغة حتى كاد يسقط من تقلقله فترى كل من تحيف بيانه عجمة وجدل عن ادعاء ومكابرة يتحيف الفصيح ويستتاب البليغ ويحرك حماسه غضباً على كل من ملك من اللغة عناناً وضبط لها بياناً ويكون لا يدري من اي الدهداء هو الخ) اذا سألت معاجم اللغة عن معنى ما ورد في هذه الجملة قد تجد ان معنى (تهتأ) تقطع وبلي لكنك اذا سألت نفسك عما فهمته منها تجدها لا تحير جواباً ولا تملك خطاباً . واذا الحفت عليها بالسؤال تقول لك يلوح

في ان الكاتب الفاضل يريد ان يوبخ ادعياء اللغة والانشاء الذين ينتقصون [illegible] ويحمون من عيوب الفصيح .

لذا قلنا ان الاصح بنا من تصحيح كلمتين او ثلاث مما يحتمل ان يكون ركبه السهو في كل جمل الكتابة قرأناها وتلاعب بها . ودونك هذه الجملة الاخرى : «وقليل من ابعث بنيهما — اي الكلمات الفصيحة — الى اصلها . ويقيم من الشأن ما أوده . الى ما وقع من غير تحسين بهذا الى اليوم الا تركه المجتهدون في لغة العربية الاقدمين وقد [illegible] بحث والتنقيب والبحث الى التدقيق والتحقيق وقد ترجع شأنهم الامة الى رونقها الاول بعد حين» بهذا تأتيه الجملة بجموعها ركيكة ظاهر عليها التكلف . ثم يريد بقوله «تركه المجتهدون» الى البقاء — تشبها . ولكن هذا الفعل يتعدى باللام . ويكون بمعنى التعهد تارة والتعرض مرة اخرى : فيقال فلان يتركك لآل الله اذا تعهدهم بالصلات والهدايا . وفلان يتركك الامير اي يتعرض له حتى يلقاه . وقوله «مثابرته اللغة» صوابه في اللغة لان المثابرة غير المواظبة . وهما يختلفان على ما يقال : ثابر على الامر واثبت فيه حتى ان العهود في مثل ما يريده الكاتب ان يقال المثابرة في خدمة اللغة او دراسة اللغة لا المثابرة في اللغة . ثم التفت الكاتب بالائمة على المدارس الاجنبية التي توجب على تلاميذها التخاطب بلغاتها . قال : «ومن ذلك يتسرب العقوق واي من البلد الى القلوب وعقول هؤلاء الاولاد المساكين» قد تجد التسرب العقوق الى العقول . ومن لك الانجذب التسرب اليه الى عقولهم معنى ولا ادري معنى بسبب التخاطب باللغات الاجنبية

ثم قال الكاتب «ان البلاء ليس في الادعياء وحده بل في الحال كل منا برأبه . والتسرع والتصالح الاجنبي والتزيد . الظاهر تكلفه والعقوق البادي تخفه منع الوطني ورنح الخاذل حتى في اللغة تخسر كل عروة باقية في عروقها وتختل كل درة كنا نعرفها قبل صنعها ، وفقه في تدابيره جمودت»

أليس من صاحب الامر ان يعمّ مثل هذا الكلام في مقال نشر ليكون نبراسا يهدي الكتاب الى مواقع الفصاحة والبلاغة وحسن التعبير . ويجنبهم مزالق الركاكة والسلطة والغموض ؟

والغريب من ذلك ان حضرة الكاتب اراد ان يذكر عيوب اللغة فعد منها عيبا بعده لوم مزية من مزايا اللغة العربية ويحدبه الترادف امراً طبيعياً لا تخلو منه لغة من اللغات . فقد قال

(ومن عيوب العربية ايراد جموع لامفرد لها وافعال لامصدر ولا ماضي لاحدها . فهل تقبل فلسفة اللغة شيئاً من هذا ؟ وهل يعقل ان واضعي اللغة بنوا كلاً من غير اجزائه ؟ اننا لاننسب هذا الخلل الا الى مدعي المحافظة على سلامة اللغة او يكونون يحافظون على قديم عقيم لايسلم به عقل سليم)

لانرى علاقة بين فلسفة اللغة وبين ان يكون في العربية جموع لامفرد لها : عدّ اهل اللغة طائفة من الجموع لم يعرف لها مفرد : مثل محاسن ومذاكير وتجاليد . فذهب بعضهم الى انها لامفرد لها . وحقق آخرون ان لها مفردات اهملت في الاستعمال . وربما كان المراد من قول الاولين (لامفرد لها) اي في الاستعمال لا الوضع فلا يكون بين الفريقين خلاف .

ولابد من داع دعا اهل اللغة الى اهمال تلك المفردات . وقد قالوا ان جمع (لب) (الباب) لكنهم لما رأوا الجمع ارشق في اللفظ واخف على السمع اكثروا من استعمال الجمع واهمال مفرده وهكذا كان دأب القرآن الكريم في استعمال الجمع دون المفرد .

ومثل هذا يقال في الفعل الذي لم يستعمل مصدره اولم يستعمل ماضيه .

فليست المسألة اذن من مسائل الفلسفة . وانما هي من مسائل تخير ارشق كلمات اللغة للتخاطب والتفاهم .

وفلسفة اللغة لايصلح ان يكون التعمق فيها مدعاة الاجادة في المنظوم والمنثور . كما كرره الكاتب في مقاله : فان تلك الفلسفة علم نظري اكثر مما هو عملي . وله ثمرة خاصة به غير تجويد الانشاء وتحبير الكلام الذي يتوقف على استظهار كثير من كلام البلغاء واطالة النظر في اساليبهم والتفطن لمناحي كلامهم . هذا هو الطريق لتحصيل ملكة الانشاء . اما فلسفة اللغة فلا يكون من اثرها ذلك بل ربما كان للاشتغال بها اسوأ الاثر في ضعف تلك الملكة والعجز عن تحدي الكلام البليغ .

وقد غلا حضرة الكاتب في الرفع من شأن فلسفة اللغة والحط من قدر زملائه الكتاب الذين لم ينالوا حظاً من تلك الفلسفة حتى قال :

(نحن ابعد ابناء اللغات الحية عن وضع الكلام في مواضعه واقامته في مواقفه، لاننا لاندرس فلسفة اللغة بل لان اكثر اصحاب الجرائد والمجلات والمترجمين والمؤلفين من غير الاكفاء الا بالتبجح والادعاء . او ان اللغة امست واسطة للكسب والارتزاق حتى بالعبث والنفاق)

فقـد جعل حضرته علة تقصير اخوانه في وضع الكلام مواضعه جهلهم السنة اللغة . فهل هذا حق ؟

ومما انتقده الكاتب قولهم (دام بقاؤه) فقال (ان طلب الدوام ، حماقة وحرام) والقوم في هذا القول قد طلبوا البقاء في دار الفناء ، وخلودًا من اعدت لهم الخلود) . وهذا ذهول من حضرة الكاتب : لان اصل الدوام في اللغة السكون ومنه (ماء دائم) . ويستعمل ايضًا في طول البقاء وامتداد المدة ، ومنه (الديمة) المطر الذي يستمر تهطاله بضعة ايام . ومنه ايضًا استعمال (مادام) : فاذا قلت اجتمع بك مادامت لي هذه البلدة كان المعنى مدة بقائك فيها . فقول الكتاب دام بقاؤه في الدعاء بمثابة اطال الله بقاءه . نعم قد يراد بالدوام الخلود كما في القرآن الكريم (اكلها دائم وظلها) والضمير يرجع الى الجنة كما ان الخلود نفسه يراد به طول المدة احيانًا كما ورد في القرآن الكريم عن اناس لايكونون كافرين ومع هذا حكم عليهم بانهم يدخلون النار خالدين فيها ففسروا الخلود بانه طول المكث لا المكث الابدي .

ومما انتقده ايضًا وسهى فيه قولهم (همى الدمع من عيونها) قال : « كم من عيون لها » يشير الى ان صوابه ان يقال « من عينيها » . لكن اهل اللغة يجيزون استعمال صيغة الجمع في المثنى والجمع في المثنى بل يجوزون احيانًا استعمال المفرد في الجمع والجمع في المفرد . ومثلوا لكل ذلك . وذكروا له اسبابًا معتبرة عند اصحاب اللغة . ففي القرآن الكريم « فقد صغت قلوبكما » . وكان الظاهر ان يقال : « قلباكما » لان المخاطبين اثنان . وما قيل لا قلب . لكنهم كرهوا اجتماع علامتي التثنية في لفظ واحد . اما مثل « همى الدمع من عيونها » فيأولونه بارادة المبالغة وان المرأة كانت كأنها تبكي بعيون كثيرة . لفرط ما اسبلته من الدموع الغزيرة . واكثر ما اخذه الكاتب انه عاب اخوانه الصحافيين في امر تكاد ترى مثله ماثلًا امام عينيك وملموسًا تحت يديك في كل جملة من جمل مقاله . مثال ذلك انه خطأ في قولهم (ارسلت له) وصوابه « ارسلت اليه » . وانتقاده صحيح لكن الرصفاء لايستحقون عليه كل هـذا الازراء والتوبيخ فقد قال في هذا الصدد

(اصعب ما في اللغة ان الكاتب الفصيح احسان استعمال حروف الجر وكل مدقق يتناول الجرائد والمجلات الا العدد القليل منها يضحك من كثرة الغلطات التي

لا يقدر مثني [illegible] عليها وفي مقدرة شراه مجم او في رأسه قوة تميز بين هذا وذاك المعنى الخ)

ولكن هل تحسب حضرة الكاتب في منجاة من كل ما ينتقص به زملاءه • وهل تراه احسن استعمال حروف الجر ووضعها مواضعها اللائقة بها ؟

قال في هجو اولئك الزملاء المساكين : فترى اكثر الكتاب يتعرضون لما لا يعذرون عليه) اخطأ الكاتب في استعمال الحرفين « في » و « علَّ » في جملة واحدة قصيرة • يقال تعرض عليه اي كذب وافترى • ولا يقال تعرض فيه • ويقال عذره في عمله • ولا يقال عذره على عمله • فكان الواجب على الكاتب ان يقول (يتعرضون لما لا يعذرون فيه) • على ان هذه الجملة برمتها لا معنى لها او لا معنى لاستعمال التعرض في هذا المقام

ومما قاله في صدد التهكم بالكتاب والمنشئين : « ولماذا لا نكتب ونكاتب فيهم وسهولة وبساطة وسلامة ؟ » حقّاً ان حضرته اشفق على القراء من اذى ما يتألمون من كد الذهن اذا قرأوا كثيراً مما يجيء به الكاتبون لكنه لم يشفق هو عليهم في مقاله هذا بل صرعهم بثالثة الاثافي منذ قال في خاتمة المقال • واننا نعيده على اسماع قراء المقتبس وان طال :

« ثم ما هي فائدة الحركات في اللغة اذا كنا لا نريد الا نصرف عن جعل الواو « الشبيهة بالمد » في اولى وعمرو وحيوة وصلوة بحجة التجميل وازالة اللبس وهلا يوجد غير هذه الكلمات في العربية محتاجة الى الضبط ؟ ثم ما هي فائدة الحركات اذا كنا نكتب ماله ؟ ولا يجوز لنا ان نكتب مؤنثه إلهة ؟ ثم كيف يعقل ان تكون جموع لا مفرد لها مثل شلة ومخاطر ومحاسن ومخاليط وما جمعه الثعالبي وغيره وهل كان كل ما لا يكون معه الجامع لا يكون وضعه في الوضع جرياً على القياس ؟ وكيف يمكن ان تكون المطاوعة في فعل ولا تكون في آخر مثله تماماً ؟ وكيف تكون صيغة افعل التفضيل في ما لا فعل له كقولهم هو اقمط منه ؟ او كيف يكون مضارع لا ماضي له كقولهم لا يفتر ؟ او مزيد لا مجرد له • والامثلة متوفرة • ومشتقات العربية بعد ان كانت مختلفة • ونناصح كل من لم يكن فصيحاً وان يكون متفصحاً • اوجب انه يرجع الناس الى فقه اللغة الذي لا اشير به كتاب ابي منصور الثعالبي بل فلسفة اللغة حتى لا يرسل كل من عثر بقدرته الكلام على عواهنه ويحسب ان من جمع كلمة الى كلمة كان شاعراً وماهراً [illegible] من التحديد المبهم الذي لا يريد الا اشكالاً واعتدالاً في تعليم القواعد بحسب كل

[illegible] ولا سيما [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] والله ولي التوفيق

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

* * *

[illegible]

الآداب العربية

[illegible] أحمد زكي [illegible] من مخطوطات السلف في علوم مختلفة [illegible] حكومة مصر [illegible] دار الكتب المصرية [illegible]

موسوعات

نهاية الأرب في فنون الأدب [illegible]